مفاهيم إسلامية

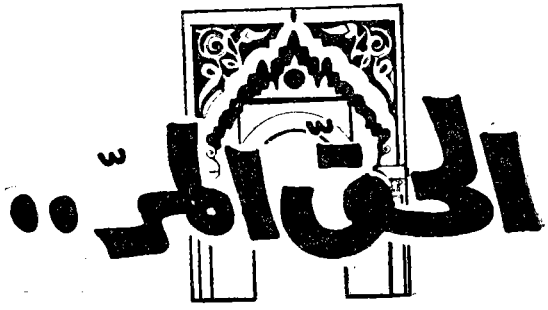

محمد جلال كشك

مكتبة عمار
للطباعة . والنشر . والتوزيع
١٣ شارع الجمهورية - القاهرة

إلى الذين لا يطيقون قول الحق المر . .

ولا حتى يطيقون سماعه . .

خطبة الكتاب

هذه بعض قراءات فى سفر تراثنا الإسلامى . . لا نريد بها أن نجتر ماضينا ، ولا أن ننتشى بخمر الأسلاف . . بل أن نفتح عيوننا على هول ما يدبر لنا ونتلمس الطريق الوحيد الذى يمكن من خلاله أن نلهب حماسة الجماهير ونطلق طاقات الأمة العربية ، ونجمع حولها إرادة العالم الإسلامى لنحرر أرضنا المحتلة ، ومسجدنا الأسير ، وتاريخنا الذى دنسته الصهيونية ، ونستنقذ شرفنا الذى يوشك أن يجلل بعار لا يمحى أبد الدهر . .

والحق أن الحضارة الإسلامية ، بشموخها وجلالها ، قادرة على أن تنسى مرارة الزمان ، وانهيار المكان . . وكم تخدرت أجيال من أمتنا باستغراقها فى تلاوة التراث . . وكم استهانت أجيال من أمتنا

بخطر ما يدبر لها من أعداء العروبة والإسلام ، لأن نور مجدها قد بهر أعينها ، فعجزت عن أن ترى ما يتحرك فى الظلام . .

غير أن تراثنا يعلمنا ألا نستهين بدأب الجرذان أو دابة الأرض . . فالأولى ظلت تأكل فى سد مأرب حتى طاح به السيل ، وتبددت حضارة سبأ . . وذوت الجنتان . . والثانية أكلت منسأة سليمان فسقط وانطلق الجن فرحين . .

ومهما يكن شموخ تراثنا وعظمة اسلافنا . . فلاشك أن قرونا من الظلام قد سادت الوطن الإسلامى . . وأن قرون التخلف قد فرضت آثارها على كل شىء . . وعلى الإنسان المسلم أولا وقبل كل شىء . .

ولاشك أن قوى العداء الأبدى للمسلمين . . وهى الحضارة الغربية الصليبية (١) ، ثم وريثتها الشرسة ، الصهيونية .. لاشك أنهما قد أجادا استغلال فترة الظلام هذه ، فتسللوا .. وضربوا .. ولاشك أنهم حركوا عوامل التخلف لصالحهم ، وفى الاتجاه الذى يخدم هدفهم ، وهو القضاء على الإسلام ، وإذلال المسلمين ، والتصرف فى أقدارهم ، وانتزاع أرضهم ، وما وهبهم الله من ثروات ..

ولاشك أن المسلمين قادرون ، على أن يواجهوا الخطر المحيق

---

(١) الحضارة الغربية الصليبية هى الحضارة الاوروبية — الامريكية بصرف النظر عن انقسامها إلى دول أو نظم أو كنائس مختلفة

بهم .. قادرون على تحرير إرادتهم ، واستخلاص أرضهم ، وإنزال الهزيمة بعدوهم ، وبعث حضارتهم من جديد ..

يستطيعون ذلك لو أدركوا حقيقة الخطر الذى يواجههم ، حقيقة الدوافع التى تحرك الحقد الاستعمارى للحضارة البيضاء ضدنا .. كيف كان لشعار : « قاتلوا المسلمين » فعل السحر فى أوروبا وأمريكا فى صيف ١٩٦٧ أى فى النصف الثانى من القرن العشرين .. حتى هبت الجماهير فى فرنسا تتبرع خلال أربعة أيام بمليار فرنك .. وهو مالم يجمع لشعب فيتنام فى أربع سنوات ! .. تبرعوا بها لاسرائيل من أجل قتل المسلمين ! وهكذا كانت الصحف تنشر فى صدر صفحاتها الأولى ، وهكذا كانت اللافتات تقول فى المظاهرات ! وهكذا كان يكتب على صناديق التبرعات ..

« قاتلوا المسلمين (١) » !

فتحرك الحقد الصليبى الموروث ..

وما من عاقل يظن أن الدافع هو حب اليهود .. أو الخوف على اليهود من تصريحات الشقيرى . ! فالانسان الاوروبى لا يكره

---

(١) لم يجد الفيلسوف الوجودى سارتر مايعتذر به عن رفع هذا الشعار فى فرنسا ، وسيره هو شخصيا فى مظاهرات ترفع هذا الشعار الصليبى .. لم يجد ما يعتذر به إلا أنه خطأ فقد عرف بعد ذلك بوجود مسيحيين عرب ! .. ربما يصحح فى المرة القادمة : قاتلوا المسلمين والمسيحيين العرب !
(راجع حديثه فى الاهرام ٦٧/٧/٣) وانظر كتابنا « أخطر من النكسة »

بعد المسلمين إلا اليهود .. والحس الغربى المتبلد الذى لم تحركه مذابح الاستعمارية والطغيان الوحشى طوال هذه السنين .. ما باله ينفعل على هذا النحو لمجرد منع سفن اسرائيل من المرور فى خليج العقبة ؟!

لقد آن أن نعرف أن أوروبا وأمريكا تعادينا لأننا :

- مسلمون
- عرب
- لأننا التحدى الحضارى لهم
- لأن قيمنا أعلى وأسمى
- لأن أرضنا أغنى وأخصب وأقدر على بناء حضارة أكثر ازدهاراً ..
- لأنهم يسرقون ثرواتنا ، ويستغلون خيراتنا . .
- لأن حضارتهم قامت على استغلال ونهب آسيا وافريقيا حيث يعيش المسلمون ، وحيث كانت حضارة المسلمين .

هذا هو العداء الأصلى ، وفى إطاره يجب أن نعمل ، فلا تطوح بنا أوهام اقناعهم أو كسبهم .. فهم لا يحبون اليهود ، ولكن يتمنون أن يقتل اليهود لهم العرب .. ويذلوا المسلمين .. وهم لن يسمحوا أبداً بقيام دولة عربية أو إسلامية قوية فى مستوى العصر . . لا بد أن ينتزع ذلك من براثنهم انتزاعاً بالدم والحديد والنار .. فهذا هو قانون

التاريخ الأبدى . . ما من قوى كبرى تسمح راضية بقيام قوة كبرى جديدة .

لنستغل تناقضاتهم كما نشاء ، وكلما أمكن ، على أن يكون واضحاً أنه مامن قوة كبرى يرضيها أن يكبر ويقوى الآخرون ..

إذا ما عرفنا طبيعة العداء الذى نواجهه ونوعية التحدى الذى يفرض علينا فسنعرف طريق الخلاص .. إنه البحث عن جذورنا .. والامتداد العميق بهذه الجذور فى أرضنا .. لأنها وحدها هى التى تستطيع أن تورق .. وأن تصمد للأعاصير التى تريد أن تقتلعنا وتطوح بنا ..

وقد تنبه حس الجماهير بعد الخامس من يونيو .. فانفجرت طاقات من الشوق إلى الإسلام ، بعيدة كل البعد عن أن تكون غيبوبة صوفية ، كتلك التى كانت تنتشر فى الوطن الإسلامى فى أعقاب الهزائم والانهيارات .. بالعكس ، فرغم كل مبررات اليأس القاتل .. إلا أنه من الممكن أن نتلمس فى هذا الحنين إلى الإسلام والشوق إليه ؛ ملامح إرادة بعث ، وتصميم على النصر ، وإدراك للدور الذى يمكن أن تقوم به العقيدة فى مواجهة الخطر الصهيونى .. ويقين أنها ليست عقيدتنا التى هزمت .. بل نحن الذين تخلينا عنها ..

لكن .. هذا الشوق يمكن أن يضلل .. وهذه الإرادة يمكن أن يزيف طريقها ، لا بمجرد الشعارات الجديدة التى بدأت تصدر عن

جيف النظريات والحركات العقائدية ، ونفايات المذاهب التى قذف بها المحيط الصليبى عند شواطئنا .. هذه الشعارات التى تدور حول ضرورة التخلص من الدين لنصبح مجتمعاً علمانياً . . وإن لم يكلفوا أنفسهم عناء اخبارنا بما هى مظاهر التمسك بالدين التى عاقت زحفهم !

إن هذه الشعارات لا تهدف فى الحقيقة إلى ابعاد الدين عن السياسة ، كما يدعون ، فهو مبعد ، والحمد لله ، منذ سنوات اكبر من عمرهم ، وعمر من غرروا بهم !

الهدف الحقيقى ، هو سد الطريق على أية محاولة لتلمس الحل الحقيقى . .

إلا أن هذه المحاولات لا تعمل وحدها ، بل لا يقل عنها خطورة محاولات إشباع شوق الجماهير ، بتقديم قشور التدين الشكلى .. بل التنطع وليس التدين . . إخفاء جوهر الدين ، إخفاء طبيعته الحية المتطورة ، وتحويله إلى أوراد وأذكار ودروشة .

لذلك وجدتنى فى هذه الفترة ، أحاول أن أعود لقراءة التراث .. بحثاً عن فهم جديد .. ينير الطريق .. فكانت هذه القراءات .. نشرت بعضها فلقيت استجابة واسعة فأحببت أن أجمعها وأضيف إليها وأقدمها للقارىء المسلم لعلنا معاً نبدأ بفهم جديد وإيمان جديد .. وعمل جديد..

وقد سميتها باسم : « الحق المر » وهو عنوان الفصل الذى خصصته لأبى ذر رضى الله عنه ، مقتبساً من جملة طالما كان يكررها كلما واجه

الناس بالحق فضاقوا به ، وضاقوا بالحق .. فكان يعتذر قائلا : « لقد عاهدني خليلي أن أقول الحق مهما يكن مراً .. »

فإن كان بعضنا لا يطيقون قول الحق ، فلعلهم لا يغضبهم أن يقوله غيرهم .. ولا يبلغ بهم العجز حد الحقد على قائليه .. هم الذين عناهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

« يحسبون كل صيحة عليهم .. هم العدو فاحذرهم »

فشر الناس هم أولئك الذين لا يقدرون على قول الحق ولا يطيقون سماعه .. ولهم أهديت هذا الحديث حتى نبلغ منهم وفيهم ما يرضى الله .

جلال كشك

٢٢ ربيع الثاني ١٣٨٨
١٧ تموز ١٩٦٨
٣ ب بهجت على الزمالك

مدخل

نحن نؤمن أن التاريخ الإسلامى صنعه المسلمون ، بإرادة الله تعالى فى كل جزئية من تفاصيله .

غير اننا لا نلزم أحدا بإيماننا هذا ، ولا نفرضه كقضية يشترط التسليم بها قبل النقاش . . بل من حق من يشاء أن يستخدم أى منطق يثبت أنه على فى مناقشة هذا التاريخ والحكم عليه .

ونؤمن أن الله قد اراد لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام أن ينقل آخر كلمات السماء للأرض . . فأعلنه « خاتم النبيين » واعلن بعد فتح مكة أنه قد أتم نعمته واكمل الدين واختار لنا الإسلام دينا (١) .

---

(١) لو لم تكن للاسلام من معجزة الا هذا التبليغ الذى لا يصدر بهذا اليقين الا ممن بيده الأمر . . خالق الكون . . ثم تتأكد مشيئته ، فلا يظهر نبى آخر ، ولا حتى دعى ناجح . . لو لم يكن لديننا الا صدق هذه الآية عبر أربعة عشر قرنا . . ثم توفر الادلة على انها ستصدق إلى أن يرث الله ، الارض ، ومن عليها . .

أقول لو لم يكن فى ديننا الا هذه المعجزة لكانت الحجة التى لا تعلوها حجة .

ولأن إرادة الله قد شاءت أن يكون محمد هو خاتم النبيين ، وأن يكون الإسلام هو آخر كلمات السماء للأرض .. فإن حكمته تعالى اقتضت أن تكون هذه الرسالة صالحة لكل زمان ومكان .

إذ لو كانت الرسالة محدودة بزمن معين ، أو موجهة لبلد بعينه ، أو جيل أو جنس ، أو جماعة من الناس .. لكان دورها ينتهى بانتهاء من وجهت إليهم ، بانقضاء هذا الزمن المحدد ، أو بزوال هذه الأمة المعينة .. أو بانتقال الإنسان عبر المكان بما شاء له الله أن يخترق حواجز المكان ، وأبعاده ، لينتقل إلى بيئة غير بيئته وظروف غير الظروف التى نزلت لها الرسالة وبها ..

فالإيمان بأن الإسلام هو خاتم الاديان . مرتبط بالإيمان بصلاحيته لكل زمان ومكان .. لأن القول بغير ذلك يعنى أن صلة السماء بالأرض تنقطع فى مرحلة من عمر الإنسان على هذه الأرض ..

أى أن الناس يستقبلون زمنا يعفون فيه من محاسبة السماء ، ويضطرون إلى إقامة مجتمعهم بغير هدى السماء وبغير التزام أمامها .. قد أعفتهم السماء من ذلك بانهاء رسالتها ..

ولكن إرادة الله اقتضت أن تستمر السماء فى هداية الإنسان ، كما اقتضت أن تكون رسالة محمد هى آخر التوجيهات وآخر كلمات السماء فى شئون الأرض(١) .

---

(١) الا ماشاء الله بغير الرسل والانبياء

وهذا لا يتأتى — كما قلنا — إلا بأن تتضمن هذه الرسالة من عناصر الخلود ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان . . أى لكل الأجيال وكل القرون وفى كل بقعة من أرجاء هذا الكون يصل إليها الإنسان . .

وإذا كان علماء الطبيعة والفلك يعرفون الكون بأنه محدود ولا نهائى . . فلا بد أن تكون الرسالة التى جاءت لتنظيم هذا الكون « محدودة ولا نهائية » .

تستطيع أن تؤمن بهذه القضية انطلاقا من إيمانك بأن الإسلام هو خاتم الأديان . . وتستطيع أن تؤمن بها من خلال دراسة الإسلام كمنهاج لاطلاق طاقات الإنسان وتحقيق انسانيته فى هذا الكون . .

فالرسالة المحمدية نزلت خلال زمن محدود ؛ ٢٣ سنة .. وفى مكان محدود . . أرض العرب .. وبين جيل محدود هو الجيل الأول الذى عاش سنوات البعثة .

وقواعد الإسلام ، قد حفظها كتاب الله ، وتعهد ، خير من وفى ، أنه سيحفظه من التبديل والتحريف . . وصدق وعده ، فحفظ كتابه ، فى عهود ما كان أصعب حفظ كتاب — أى كتاب — فيها !

ورغم كل ما انتاب العالم الإسلامى من أخطار وهزائم واغارات . سلم كتاب الله فلم تمتد له يد بتشوية أو تحريف ، واختلف المسلمون فى كل شىء ولم يختلفوا فى حرف من كتاب الله . .

ومن حقائق هذا الكون — التى لا تحتمل الجدل — هى أنه قد نظم وفقا لقوانين نستطيع أن نكتشفها ونوجهها ولكننا لا نملك إلا الخضوع لها كبداية للسيطرة عليها . .

وان الأديان ساعدت الانسان على اكتشاف هذه القوانين والسيطرة عليها ، سواء آمنا انها جاءت من السماء أم من عبقرية مصلحين إجتماعيين . .

والاسلام — كما نرى — هو أفضل النظرات التى تفسر هذا الكون ، وتهدى إلى بذل الخير .

وفى تفسيرنا الدينى أن الله الذى وضع قوانين الكون ، شاء لها أن تعمل ، وشاء لنا أن نتعلم كيف نسيطر عليها ، وكيف نبنى حياتنا فى اطارها ، متخطين حتميتها بالخضوع لضرورتها . .

فالناس يصنعون حياتهم من خلال علاقة تفاعل ، متغيرة باستمرار ، بين ما ترسمه أفكارهم ومبادئهم من مثل ، وما تتيح لهم إمكانيات عصرهم من وسائل مادية لبناء الحياة وفقا لهذه القيم .. أى بين أحلامهم ، وقدرتهم على الاقتراب من هذه الأحلام وتجسيدها فى تشريعات وعلاقات إجتماعيه وسياسية واقتصادية وأخلاقية .

ومن هنا فإن الرسالات والنظريات والفلسفات ، يمكن الحكم عليها من ناحية قدرتها على تذليل الكون للانسان ..

فالنظريات التى تدعو لارتقاء الإنسان يفترض فيها أن تتضمن :

• مثلا تدفع الانسان إلى رفض الواقع ، ساعيا إلى وضع أفضل فى علاقاته مع نفسه ، ومع الكون ..

لأن القيم والمبادىء التى تبارك الواقع وترضى به ، قد تحدث للانسان سعادة مورفونية ، ولكنها لا تدفع الانسان إلى الارتقاء . .

• قيم واقعية ، تبدأ من إنسان المكان والزمان المعينيين لتصنع فيه ، وبه ، التغيير .. فإن عجزت عن احداث هذا التغيير ، كانت مجرد خيالات وأفكار عن جنة فى عالم آخر ، ولكائن آخر غير هذا الانسان . .

ان القيم والمثل والفضائل التى لاتجد ناسا يطيقونها ولامجتمعات تمارسها ، هى كمقدرات آلهة اليونان والجن الخرافية ، لاسبيل إليها ، ولا يعيب الانسان أن يتغاضى عن إمكانية إدراكها . . بل يبدد وقته ، ويفسد حياته ، من يحاول الوصول إليها . .

• مدى صلاحيتها لتخطى حدود الزمان الذى عبرت عنه ، وحدود المكان الذى ظهرت فيه وحملت بصماته فى تكوينها وصياغتها . . فذلك ما يحدد امتداد الدعوه وشمولها وعالميتها . .

والاسلام — كما قلنا — يفترض فينا أن نؤمن بصلاحيته لكل زمان ومكان . .

وقلنا أن القرآن قد ضبطت آياته وحروفه ، وأنه من غير المعقول

أن نفترض اننا سنجد فيه قوانين الجاذبية لينوتن،أو النسبية لانشتين .. أو الانتخابات بالقائمة . . والنظام الرئاسى . . ونظم إدارة القطاع العام !

ومهما بلغ جهد البعض فى استخراج التماسير ، فستبقى هناك قضايا تفصيلية لم ينص القرآن عليها .

ولولا ذلك ما وضع فقهاء المسلمين ، القياس والاستحسان والإجماع . . واكتفوا بعلم واحد هو التفسير . .

بل اكتشف فقهاء المسلمين هذه البديهية العسيرة على إدراك الكثيرين . . الا وهى : محدودية النصوص ، ولا نهائية المشاكل التى تثيرها الحياة[1] .

بل ان معجزة ديننا أن القرآن الملزم لنا حرفيا ، ليس فيه هذا الاغراق فى التفاصيل الذى تتسم به بعض الكتب المقدسة ، ومن ثم فإنه مامن مسلم قد وجد نفسه فى حرج أمام نص من نصوص القرآن فى أى عصر من العصور . .

فرغم نسبية المعرفة وتطورها باستمرار فيما يتعلق بنظرة الانسان إلى الكون وقوانين المادة وحركتها إلى حد تعارض النظريات مع بعضها ، تعارضا تاما ، فما من نص فى القرآن تستطيع أن تقول أنه

---

١ — الشهرستانى ـ الملل والنحل .